أثر سيبويه فى نشأة النحو العبرى

بقلم : الدكتور حسن ظاظا
الاستاذ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

من الامور التى لا تحتاج الى الاطالة فى شرحها كون اللغة خادما للفكر ، واداة لحفظه وتوصيله الى البشر ، من المتكلم الى السامع ، ومن راوية يحمل عمن قبله ليؤدى الامانة الى من بعده ، ومن كاتب يسجل بعض ثمار الفكر الانسانى لتواصل مسيرتها عبر الاجيال والاقطار .

واللغة — اية لغة كانت — تتعرض فى حياتها الطويلة لما يتعرض له كل كائن حى من فترة طفولة ، ثم مرحلة شباب ، يليها نضج كامل تحمل فيه مسؤولية الفكر بكل ثقلها ، وتضطر فيه غالبا الى التبادل مع غيرها اخذا وعطاء وتأثرا وتأثيرا ، ثم تلى ذلك كله شيخوخة طويلة او قصيرة بحسب الظروف التى تعترى اللغة ، فاما تنتفض من تحت انقاض الزمن لتستعيد مكانتها وحيويتها من جديد ، واما تنزوى وتستكين حتى تنطفىء من ذاكرة المتكلمين ، فيكون ذلك موتها واندثارها .

وادق مراحل اللغة هى مرحلة النضج الكامل المسؤول عن فكر علمى وادبى وفلسفى ضخم . ذلك أن الفكر الانسانى بطبيعته متطلع دائما الى التقدم نحو المجهول ، لكشفه وتوضيح كنهه . وهنا ينعقد سباق رهيب بين الفكر واللغة ، لا بد لهذه الاخيرة فيه أن تلاحق خطواته ، وأن تظل دائما على مستواه ، والا تركها ، وبعدت الشقة بينه وبينها ، فيكون من ذلك تبلبل الالسنة ، واضطراب الاساليب ، وتصدع القواعد .

وتحتاج اللغة فى هذا السباق الى صيانة علمية مستمرة ، لعل أهم ما فيها هو العناية بحصر شواهدها الفصيحة ، وتصنيف اساليبها الصحيحة ، وتسجيل قواعدها تسجيلا يجمع بين الدقة والوضوح ، والترتيب المنطقى ، والتجاوب مع المطالب العملية للمتكلمين .

وقد وجدت اللغة العربية نفسها فى مرحلة النضج الكامل هذه بعد ظهور الاسلام ، وبعد ان بدات تحمل مسؤولية حضارة كاملة لا تجتاح ما قبلها من حضارات ، ولا تحاول فى عاصفة عنيفة قاسية أن تذهب بما كان قبلها من التراث الانسانى ، بل بعكس ذلك تعمل على الاستفادة من تجارب السابقين : من فلسفة اليونان ، ونظم الرومان ، وآداب الفرس ، وحكمة الهند ، ومهارة الصين ، وخبرات مصر والشام . وبلغت هذه الحضارة الاسلامية ذروتها فى ظل الدولة العباسية ، وبدا السباق بين الفكر البشرى واللغة العربية ، وكانما هو يواجه ازمة دقيقة جدا . فقد دخلت فى الدين الجديد شعوب لعل اكثرها قد حمل من مسؤوليات الحضارة اكثر مما حملته قبائل العرب ، وبدات الالسنة تختل ، ودب اللحن والخطا الى اللغة ، وتسرب التعقيد والركاكة الى الاساليب ، ولكن طبيعة التطور لم تدع الخطر يستشرى فى كيان اللغة العربية ، بل قيض الله لها من العلماء الاعلام من بذلوا كل الجهد فى خدمتها وصيانتها والدفاع عنها : من امثال سيدنا على بن ابى طالب ، وابى الاسود الدؤلى ، وعنبسة بن معدان الميسانى المشهور باسم عنبسة الفيل ، وابى عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن ابى اسحق الحضرمى ، وابى عمد عيسى ابن عمر الثقفى ، والخليل بن احمد بن عمر بن تميم الفراهيدى البصرى ابى عبد الرحمن ، والاصمعى ابن سعيد عبد الملك بن قريب ، ويونس بن حبيب أبى عبد الرحمن ، وغيرهم .

وقد كانت آثار أولئك الاوائل من اللغويين والنحاة تنصب على الخصوص بجمع المادة العربية الفصيحة ، والنظر فيها ، وشرحها ، وتحليلها ، ومقارنة بعضها ببعض أحيانا ، والاجتهاد فى ادخالها

بحث مقدم الى مهرجان سيبويه بجامعة بهلوى بشيراز — 1974 .

فى أبواب ، أو أنماط من التفكير ، لا يكاد يتكون منها بناء نحوى منطقى جامع مانع ، مترابط الاصول والفــروع .

وجــاء سيبويه على اثــر هذه الطليعــة من الرواة ، شابــا ذكيا ، عميــق التفكير ، يجمــع التواضع فى العلم ، والنزاهة فى الحكم ، والاخلاص للغة القرآن ، الى نظرة فاحصة بقيت له من أعراقه الضاربة بجذورها فى الحضارة الفارسية ، نظــرة الفاحص المستقل الذى لم ينم على ما وجد عــليه الاسلاف ، ولم يغفل عن شــىء بحكم تعود الاذن على سماعه أبا عن جد . كان سيبويه عالما بالعربية ، ويبــدو مع ذلك فى كل خطوة من خطوات نقاشــه النحوى وكأنه طوال حياته قد بقى تلميذا لا أستاذا ، وسائلا لا مجيبــا ، ومستفهما لا مفتيا . ومن هــنا يبدو عمله النحوى العظيم ، « الكتاب » للقــارىء السطحى غيــر الصابــر على مسالــك العربيــة وأسرارها ، دسما الى درجة تحتاج الى جهد كبير فى الهضم . كان سيبويــه منطقيا ، وكان يحاول أن يتلمس فى داخل كلام العرب كله ، وفى ثنايا نظامهم فى صياغة الجمل وسبك الاساليب ، وحدة فكريــة متماسكة تضم كل الاطــراف البعيدة ، وتنتــظم فى سمطهــا أدق الدقائــق ، وأشد التفاصيل لطفــا وخفاء . كان كتابه هو الاستجابة الحقيقية لاستنجاد اللغة العربية وهى تخوض السباق الرهيب مــع الفكر والحضارة فى أوجهما . وكان الكتاب قديــرا على ذلك . كان ثروة شاملة فى التاليف اللغوى فى داخل الحضارة العربيــة ، وكان أيضــا دستورا يسير عليــه النحاة العرب بعد سيبويه ، باعجاب وطاعة ووفــاء من السواد الاعظم منهم فى البصرة وبغداد والموصل ، وفى كل مراكز الثقافة العربيــة بايران مثل نيسابور والرى وقم وأصفهان والاهواز وشيراز ، ثم فى كــل العالم الاسلامى وراء ذلــك من دمشق الى القاهرة والقيروان وفاس وقرطبة وطليطلــة ، وحتى أقصى الشمال من اسبــانيــا فى سرقسطة وما وراءها . كما فرض كتاب سيبويه نفسه على الكونة التى ناصبته العداء ، وتحزبت ضده ، فاضطر نحاتهــا الى دراستــه وشرحه ، والاستعانــة بما فيه من دفائن أسرار العربيــة ، ثم النسج على منواله ، واقتباس ترتيبــه وتبويبه فيما حاولوا تقييده من قواعد العربية فى كتبهم .

وكل هذا يبدو أمرا طبيعيا لا غبار عليه ازاء عمل أساسى متقن غاية الاتقان ، دقيق الى أقصى درجات الدقة ، واف بحيث لا يكاد أحد يكون قد زاد عليه من بعد ، الا نــوادر وشوارد تجد مكانتهــا فسيحــا مستريحا فى داخــل أبوابــه وفصولــه وتقاسيمه .

لكن معجزة سيبويه لا تتم فى كامل تألقها الشامخ الباهر الا عندما نرى أثره فى تسجيل اليهود لقواعد لغتهم العبرية ، ولاول مرة فى تاريخهم الطويــل ، متتلمذين هم أيضا على « الكتاب » ، وآخذين منهجه بحذافيره ، فى ظل سماحة فكرية اسلامية وجدت فيها جموعهــم ، فى الشرق وفى شمــال افريقــية والاندلس الامن والــرخاء والحريــة ، فأرادوا أن يعيدوا الحياة الى لغتهم المقدسة ــ لغة التوراة ــ فلم يجدوا وسيلة الى ذلــك الا السير فى نــور سيبويه ، وهذا هو الجانب الذى نريد بيانــه فى ذكرى عالم العربية العظيم .

وسنرى أنهم أطلقوا لفظة مولدة من عنــدهم لتكون اسمــا اصطلاحيا لهــذا العلم هى لفظــة « دقدوق » بمعنــى اللفظة العربيــة « النحو » . والظاهر أن لفظة « النحو » نفسها لم تكن أخذت هذا الاستعمــال الاصطلاحى لدى أوائل اللغويين العرب الذين كانوا يقولون « علم العربية » . ولا نذكر أن كلمة « النحو » مستعملة فى كتاب سيبويه نفسه . ومعاجمنا كلها لا تقول فى ذلــك قولا شافيا . وهذا أمر غريب جدير بالبحث . وكم من غرائب من هذا النوع فى كلام العرب ، منها أن كلمة « لغة » نفسها ــ الى عهد سيبويه ــ لم تكن مستعملة الا لما نسميه الآن « لهجة » بينما كانت طريقة كل أمة فى كلامها تسمى « اللسان » . ولم نجد من الجاهلية أو صدر الاسلام شاهدا واحدا موثوقا به يثبت شيوع لفظة « اللغة » عندهم . فالنحو عند العرب، والدقدوق عــند اليهود ، كلاهمــا مولدان على الارجــح .

1 ــ البحث اللغوى عند اليهود قبل سيبويه

أجمع مؤرخو اللغة العبرية على أن « عــلم اللغة » أو « النحو » لم يكن معروفا قبل أواخــر القرن الثامن الميلادى على الاطلاق ، وهو القرن الذى عاش فيه سيبويه .

ولما كان اليهود أهل كتاب ، وكانت لهم شريعة يرجعون اليها فى هذا الكتاب ، وكانت دراستــه ركنا من أركان الايمان ، وأساسا من أسس العبادة،

وكانت قبل ذلك كله منبع المعرفة القديمة بشتى فروعها ، فانه من غير المعقول ولا المقبول أن يكونوا قد اغفلوا الاهتمام بسلامة النطق ، وفهم دقائق الصياغة ، واحكام الصحة فى النقل والنسخ والاملاء ، واقرار وسائل التفسير واستنباط الفتاوى والاحكام من كتابهم هذا . ولكن الثابت أن طريقتهم التقليدية التى درجوا عليها ، على مدى القرون الطويلة التى سبقت علوم العربية ، كانت الطريقة المباشرة ــ كما يقولون اليوم ــ وهى تعلم الفصاحة ، وتوخى الدقة فى الاداء من خلال الدروس الشرعية التى كان يتلقنها التلميذ عن الاستاذ . ولذلك فاننا نجد بعض الاشارات فى المشنا والتلمود ، وهى نصوص الشريعة الشفوية المقدسة عند اليهود الربيين ، التى تعنى بنقطة جزئية من معرفة اللغة ، ترد عرضا فى ثنايا النقاش الفقهى ، الذى يسمونه ملاخة ✪ ـــــ ، أو السياق القصصى الذى يسمونه هجاده ✪ ـــــ ، بدون أن يطلق على هذه الملاحظات اسم خاص كعلم اللغة ، أو النحو، أو التصريف ، أو ما اليها .

فقد جاء فى التلمود مثلا (يباموت 13) : قاعدة هامة كان يعلمها الربى نحميا عن فتحة الاطلاق المنتهية بهاء المد واللاحقة باواخر بعض الاسماء العبرية للدلالة على الظرفية المكانية الاتجاهية ، وهى القاعدة التى يقول فيها أن كل اسم يقبل فى أوله حرف اللام الدالة على الاتجاه يمكن أن تاتى بدل هذه اللام فى آخره هاء الظرفية المكانية الاتجاهية .

كذلك عنى التلمود بتصحيح التلاوة فى مواضع دقيقة ، فالتلمود الاورشليمى مثلا (براخوت 82) عند الكلام على تلاوة «قراءة السماع» فى الصلاة، وهى الجزء الاساسى من كل صلاة ، الذى يبدأ بعبارة « شمع يسرائيل ✪ ـــــ » «اى» « اسمع يا اسرائيل » يوصى بالعناية بمخارج الحروف بحيث ياخذ كل حرف طبيعته الصوتية الكاملة المميزة له ، فيقول ان الفعل «تزكرو ✪ ـــــ» اى « تذكرون » يجب أن تظهر فيه الزاى بنطقها الصائت المجهور ، بحيث لا تلتبس بكلمة « تسكرو ✪ ـــــ » اى « تشترون » أو تدفعون ، أو تؤجرون، أو ترشون » . وقالوا انه عندما تاتى كلمتان متواليتان تبدأ الثانية منها بنفس الحرف الذى تنتهى به الكلمة الاولى فانه ينبغى الفصل بينهما بسكتة خفيفة حتى لا يندغم الحرف الثانى فى الاول ، كقوله قراءة السماع « عل ــ لبابيخا ✪ ـــــ » اى « على قلبك » ، وقوله كذلك « عسب ــ بسادخا ✪ ـــــ » اى « عشبا فى حقلك » .

بل ان علماء التلمود تنبهوا الى تطور اللغة العبرية على مر العصور ، وأن ما يجوز فى عبرية الكتاب المقدس قد يختلف فى عبرية الاحبار . فقالوا (حولين 137) ان لغة التوراة لغة قائمة بذاتها ، كما ان لغة الاحبار قائمة بذاتها . قالوا هذا بالعبرية وبالآرامية :

بالعبرية : لشون توراه لعصماه ، ولشون حخامين لعصمان .

وبالآرامية : ليشانا داوريتا لحود ، وليشانا دربنان لحود .

وقد تستهويهم الرغبة فى التفرقة بين الالفاظ ادرجة توقعهم فى تأويلات اقل ما يقال فيها انها طريفة ومسلية ، كتفرقتهم بين كلمتين فى العبرية تقابلان فى العربية كلمتى « الذكر » بمعنى الاسم ، والذكرى بعد الموت أو بعد النسيان ، وهى بكسر الذال وسكون الكاف ، و « الذكر » بفتح الذال والكاف ، الذى هو ضد الانثى . فقد وجدوا فى التوراة (سفر التثنية 25 : 19) « تمحو ذكر عماليق من تحت السماء ، لا تنس » ، والكلمة هنا « زيخر ✪ ـــــ » والاية : ✪ ـــــ ووجدوا (الملوك 11 : 16) «لان يوآب وكل اسرائيل اقاموا هناك ستة اشهر حتى افنوا كل ذكر فى ادوم » ، والكلمة هنا « زاخار ✪ ـــــ » والاية : « ✪ ـــــ » وخرجوا من المقارنة بين الآيتين بأن يوآب قائد داود قد اخطأ فى قراءة توصية التوراة بالمحو الكامل لكل ذكر واثر ، فاتعب نفسه على مدى ستة شهور فى البحث عن الذكور فقط وقتلهم ، وكان اسهل من ذلك أن يبيد الجميع .

وكان احبار الشريعة الشفوية من التنائيم (علماء المشنا) والأموراتيم (علماء التلمود) فى هذه الشروح اللغوية التى تاتى فى خلال كلامهم يتنبهون الى صفات ومميزات معينة فى الكلام ، استعملوا لها بعض المصطلحات مثل : المذكر ✪ ـــــ

(✪ ـــــ) لم تدرج هذه الكلمة العبرية وامثالها الآتية لعدم تيسر حروفها لدى المطبعة .

والمؤنث ✪ــــــ والمفرد ✪ــــــ والجمع ✪ــــــ كما عرفوا الالفاظ التى تعتبر اصولا للاشتقاق ✪ــــــ والحروف الابجدى ✪ــــــ والنطق ✪ــــــ والاسم ✪ــــــ ومصطلحا كانوا يستعملونه لما يقابل لفظة الضمير عند النحاة العرب ✪ــــــ ، وعرفوا الفعل ✪ــــــ ، وميزوا فيه بين الماضى ✪ــــــ والحالى ✪ــــــ والمستقبل ✪ــــــ ، وكان عندهم اصطلاح للدلالة على ما يسمى عند النحاة العرب بالاستعمال ، او تنوع الدلالة ، او مجاز الالفاظ ، هو ✪ــــــ .

2 ـ ظهور علم النحو المنهجى عند اليهود

يسمى اليهود هذا العلم فى لغتهم « دتدوق »

ونحن نعلم أن من أقدم الامم التى عنيت بتسجيل قواعد لغتها الامة اليونانية ، وسمت هذا العلم « جراماطيقى ✪ــــــ » ومعناه حرفيا « احكام الالفاظ » ، ومنهم أخذ السريان هذه التسمية كما هى أو مترجمة الى لغتهم « توراص مللا ✪ــــــ » . اما العرب فانهم سموا هذا العلم « النحو » ، وذكر رواتهم فى ذلك حكايات كثيرة ، منها الحكاية التى رواها ابو البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى فى اول كتابه « نزهة الالبا ، فى طبقات الادبا » من ان الامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه قد اشار على أبى الاسود الدؤلى بتقييد قواعد للغة العرب تقيهم من الخطأ فيها بعد أن اختلطوا بغيرهم من الامم وبدأوا يقعون فى اللحن والاضطراب . ولما قيد ابو الاسود من ذلك ما فيه الكفاية قال له سيدنا على « ما احسن هذا النحو الذى قد نحوت » فلذلك سمى النحو .

ولسنا نريد أن نناقش هنا نشأة النحو العربى ، فان القدامى من مؤرخى هذا العلم عند العرب ، ومنهم ابن الانبارى نفسه ، قد ذكروا فى ذلك أقوالا أخرى تختلف وتتباين بشكل واضح . ولكن الذى يبدو لنا هو أن استخراج قواعد اللغة العربية انما كان من الشواهد الموثوق بها من كلام العرب . وهذه الشواهد فى الاغلب الاعم من الشعر الجاهلى ، ومن أراجيز الفصحاء من البدو ، ومن المتواتر من قراءات القرآن الكريم ، وما استفاضت روايته من النثر كسجع الكهان ، والامثال ، والخطب ، والمنافرات وما اليها ، وكان المقيدون لقواعد العربية اذا ذكروا شيئا من ذلك اتبعوه بالشاهد قائلين : نحو قوله .. أو نحو كذا .. أو نحو ما جاء فى كذا . فكانت القاعدة تسير فى اتجاه الشاهد ، والنحو والناحية فى اللغة تدل على السمت والاتجاه ، ولعل هذا العلم كله قد سمى « النحو » لهذا السبب ، اى أنه الاهتداء بكلام العرب ، والسلوك فى اتجاهه ، والاستشهاد به باستعمال كلمة نحو .. نحو .. نحو ، حتى انها اصبحت ترادف كلمة « مثل » ، يقال : اعمل كذا أو نحوه ، أى (أو مثله) . ولعل هذه الصفة فى نشأة النحو العربى هى التى جعلت « القياس » عند سيبويه ومدرسته من نحاة البصرة ، ثم كل من كتب لهم الخلود حتى يومنا هذا من نحاة العربية ، أساسا ومنهجا للسير فى هذا الميدان من البحث العلمى .

وفى اللغة الفارسية نجد تسمية هذا العلم تقترب من النظرة اليونانية ، فهم يسمونه « دستور زبان » اى القانون المنظم للسان أو اللغة .

فاذا ما عدنا الآن الى الاسم الذى اختاره نحاة العبريين لهذا العلم ، وهو « دقدوق » وجدنا انه لم يرد على الاطلاق فى عبرية الكتاب المقدس . ووجدنا انه كان يستعمل قديما فى معان أخرى غير اللغة . فهو اسم مشتق من المادة الثلاثية الموجودة فى كثير من اللغات السامية ، وهى مادة (د ق ق) ، مثل « دق » بالعربية ومعناها سحق . والشىء الدقيق ، هو الشىء الذى يحتاج الى فحص بامعان . وأول ما نعثر على كلمة « دقدوق » فى العبرية نجدها فى قوله فى المشنا (ابوت 6 : 6) « دقدوق حبيريم ✪ــــــ » التى اختلف فيها المفسرون من قائل بان معناها « التدقيق فى اختيار الرفاق » ومن قائل انها « الدقائق التى يناقشها الرفاق » .

وفى التلمود (سوكوت 28 : أ) ورد « دقدوقى توراه ✪ــــــ » بمعنى الدقائق فى تفسير الشريعة وتاويلها .

وكانت هذه الكلمة كما نرى قد بدأت تأخذ معنى متصلا بالاهتمام بالنصوص وتحليلها وتفسيرها ، فكان ذلك مشجعا لنحاة اليهود بعد ذلك على تخصيصها للدلالة على علم النحو :

فالتلمود أحيانا يذكر كلمتين تتقاربان فى اللفظ

وتختلفان فى المعنى ، أو العكس ، ثم يتبع ذلك بقوله : « الومريخين دقدوق ------- » ويقصد بذلك أن هذه الازواج من الالفاظ تحتاج الى عناية خاصة فى التمييز بينها فى اللفظ والمعنى. جاء ذلك مثلا فى التلمود البابلى (بخوروت 30 : ب) وفى التلمود الاورشليمى ; 2 براخوت 4 : د) . ويندرج فى هذا النحو من التفكير قول التلمود « دتدوقى هاوتيوت ------- » اى تحرى التدقيق فى مخارج الحروف الذى أشرنا اليه آنفا .

والخلاصة هى انه لم يكن هناك نحو بالمعنى العلمى للكلمة ؛ لانه لم تكن هناك دراسات لغوية منفصلة عن النص المقدس ، ولانه لم تكن هناك أمة يهودية لها لغة وادب يمكن استخدامه كشواهد ، ولم تكن هناك تجمعات شعبية يهودية تتحدث بالعبرية ويخشى على السنتها من اللحن والخطأ ، وهى الظاهرة التى كانت دائما تبعث على التأليف فى النحو عند جميع الامم والشعوب.

وفى ظهور علم النحو عند اليهود ، بعد استقرار النحو العربى فى صورته النهائية بفضل سيبويه ، يثور نقاش حاد ولكنه محصور فى دائرة الفكر العبرى نفسه ، هو الاقرار بالسبق الى التأليف فى النحو العبرى المتنازع عليه بين اليهود القرائين (أتباع اليهودى الايرانى عنان بن داود ، المولود سنة 714 ميلادية) وهم الذين يرفضون المشنا والتلمود ، وبين اليهودية الربية التقليدية المزدهرة فى الشرق الاوسط فى ظل الاسلام ، وبخاصة فى ايران والعراق والشام ومصر .

فمن الجديرين بالذكر من بين القرائين يهودا بن علال الطبرانى ، أبو زكريا يحيى ، الذى يجعلونه من الفترة بين 880 — 932 . ويقولون انه تأثر بنحاة العرب ، وكتب مؤلفات كثيرة فى النحو العبرى اشتهر منها كتابه المسمى « مأور عينايم ------- » اى « نور العيون » . ويرجح الباحثون أنه هو المقصود فى قول الاديب اليهودى الاندلسى الكبير ابراهام بن عزرا فى كتابه : « موزنايم ------- » اى « الميزان » أنه العالم الاورشليمى الذى الف ثمانية كتب فى النحو ، أو أنه أبو الفرج هاروق المقدسى القرائى ؟ من الجيل التالى .

ولم تصل الينا اية نماذج من كتابة ابو زكريا الطبرانى هذا فى اللغة .

وهناك عالمان كبيران شهيران جدا ، كانت شهرتهما على الخصوص فى قراءة الكتاب المقدس قراءة شرعية ، بلغة عبرية فصيحة ، وضبطه بالحركات ، وباشارات السكت والوصل وما الى ذلك ، محاكاة لما قام به المسلمون : ابو الاسود الدؤلى ، والخليل بن احمد استاذ سيبويه من تدقيق فى ضبط الالفاظ بالحركات . واحد هذين العالمين هو اهرون بن موسى بن آشر ، ابو سعيد ، والثانى هو موسى بن نفتالى . وكلاهما عاش فى أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر . ويبدو ان كليهما كانا يقيمان فى طبرية . وموسى بن نفتالى هو ابن عم اهرون بن آشر ، والاسرة كلها كانت مشهورة بخدمة « المسورة » اى تحقيق النص المقدس للكتاب العبرى والتدقيق فى تلاوته وضبطه ، واسلاف هذين العالمين معروفون بهذا اللون من البحث منذ القرن الثامن الميلادى ، اى بعد ظهور مصحف عثمان عند المسلمين بقليل .

ويؤكد الباحث القرائى العلامة بينسكر ، من علماء القرن الماضى المهتمين بتاريخ الدراسات اللغوية العبرية ، أن ابن آشر — وهو اشهر هذين العالمين واوثقهما بين اليهود بجميع طوائفهم — كان من طائفة القرائين ، ويعارضه فى هذا كل العلماء الربانيين تقريبا ، وما يزال الغموض يلف هذا الموضوع ، نظرا لان ابن آشر بتخصصه فى تحقيق النص المسورتى ، لم يترك اى اثر يدل على اهتمامه بالمشنا والتلمود ، بل ظل وفيا بدقة وبتحديد شديد للرسالة التى أخذها على عاتقه وهى العناية بتوراة موسى واسفار الانبياء والكتب الحكمية وهى الاقسام الثلاثة التى يتألف منها العهد القديم ؟ أو « المقراء » الذى يشتق القراءون اسمهم منه وينتسبون اليه ويرفضون قدسية النصوص الربية من المشنا والتلمود .

واذا كنا قد وصفنا اهرون بن آشر وموسى بن نفتالى بأنهما اكبر واوثق علماء « المسورة » وانهما فى ذلك كانا ثمرة جهود مماثلة سبقتهما عند

المسلمين ، لضبط تلاوة القرآن الكريم ، وتثبيت رسم المصحف ، فان الرجلين بعملهما هذا كانا يجمعان بين جهود مدرستين تقليديتين عند اليهود : احداهما قديمة جدا تنتمي الى عزرا في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهي مدرسة الكتبة « سوفريم » ، والاخرى متاخرة عن تلك الاجيال البعيدة وهي مدرسة « الضابطين » اى الذين رسموا الحركات على الحروف ، وضبطوها بالشكل ، وتسمى عندهم مدرسة « المنقطين » أو « النقدانيم » ، وكانت تنقسم الى فريقين لكل منهما نظامه ، احدهما فيما يسميه اليهود أرض بابل وهي العراق واجزاء كبيرة من ايران ، ويسمى نظام هؤلاء العلماء بالنظام البابلي أو الشرقي وبالعبرية « مدنحاي » — أو بالأرامية بتعبير أدق . أما الفريق الثاني فكان يمارس عمله في الشام ، وكان مركزه الاكبر في طبرية ، ولذلك سمى نظامه « الطبرى » ، أو الغربي ، وبالعبرية « معرباى » . وقد كتب لهذا الاخير الانتشار ، وبه تطبع نسخ الكتاب المقدس اليهودى المعروفة الان . وكلا النظامين يرجع الى فترة قصيرة بعد كبار النحاة والقراء امثال ابى عمرو بن العلاء ، وحمزة ، والكسائى ، وسيبويه . كان ذلك أيضا فى أخريات القرن التاسع الميلادى .

وحذا اليهود حذو المسلمين فى تحفيظ النص المقدس لابنائهم ، ورسموا لذلك منهجا مأخوذا بتمامه عن المسلمين ، من أوضح امثلته ما ورد فى كتاب الفه فى الاندلس ، الحاخام يوسف بن يهوذا ، من مدينة برشلونة ، وقد كتبه بالعربية وسماه « طلب النفس » اقتطف منه المستشرق اليهودى « نوبارو » عبارة جاءت فى باب عنوانه « أدب المعلم والمتعلم » يقول فيه عن واجب المعلم نحو التلاميذ : « . . . ثم يقرئهم التوراة والانبياء والكتب بضبطها وتلحينها ، بأن يخرجوا الطعميم (أى المخارج والنبرات) على ماهى عليه . . . . وسائر ما ينبغى ان يعلم . وهذا يكون بتعليمهم كتب المسورة . . . . الخ » .

وفى اثناء هذا العمل نجد ابن آشر نفسه يستعمل كلمة « دقدوق » بمعنى يقترب من المعنى الاصطلاحى اللغوى فى كتابه المشهور « دقدوقى هاطعميم » بمعنى « قواعد الاداء بالتلاوة » . وقد استعان بهذا الكتاب فى القرن السادس عشر العالم اليهودى « اهرون بن حاييم » عندما نشر الكتاب المقدس بالمجموعة الكبرى من تفاسيره فى ما يسمى « مقراوت جدولوت ✪ —— » . سنة 1517 ميلادية ، وكانت النسخة التى اعتمد عليها معنونة بما ترجمته : هذا كتاب قواعد التلاوة الذى الفه اهرون بن آشر من عزيا المسماة طبرية ، ✪ —— .

ويتضح من كتاب بن آشر أنه كان على صلة وثيقة بأعمال النحاة العرب ، وأنه كان يتلقى بعض المصطلحات التى استعملها مترجمة الى العبرية باجتهاده هو من طريق البصرة ، مدرسة سيبويه بالذات . فقد ذكر المستشرق اليهودى بنيامين زئيف باخر ، وتبعه آخرون ممن كتبوا فى نشأة النحو العبرى لاول مرة فى التاريخ فى ظل الدولة الاسلامية مثل رينونيتش ونوباور وسالومون سكوس عددا من المصطلحات النحوية اشهرها :

1 — الاسماء بالعبرية هاشموت
2 — الافعال بالعبرية هاملوت
3 — الضمائر بالعبرية هاتموروت
4 — الحروف بالعبرية هاأوتيوت
5 — اسم العدد بالعبرية هامسبار
6 — اسم الجمع بالعبرية هاتهل

وقد اختلف الباحثون الاوربيون المحدثون فى مدلول هذا المصطلح الاخير عند ابن آشر ، فتوهم كثير منهم أنه يعنى به « صيغة الجمع » ، وظن بعضهم أنه يريد به الادوات وما اليها من الظروف ونحوها ، بل ذهب آخرون الى انه يعنى بهذه اللفظة اسم العدد ، وكل ذلك تعريف منهم .

كذلك نجد ابن آشر يميز بين نوعين من الحروف :

7 — الحروف فى النحو ، ويسميها أوتيوت هاشموش ✪ ——

8 — حروف الهجاء ، أو البناء الصرفى ، ويسميها أوتيوت هاشورش ✪ —— .

ونشعر أن المصطلح النحوى الذى كان قد وصل فى العربية الى الاستقرار والاستقلال على يد سيبويه ، كان مايزال رجراجا متارجحا عند

اليهود ، فمثلا نجد النحوى الاندلسى اليهودى دونش بن لبرط يستعمل :

9 ـ شم لحشبون ✪ ـــــــ لاسم العدد ، بدل هامسبار عند ابن آشر •

ويضيف النحوى الاندلسى اليهودى موسى بن جقطيلة عددا من المصطلحات بعضها مأخوذ بنصه تقريبا من العربية مثلا :

10 ـ المصادر التى يسميها هامصديروت

11 ـ البدل ، الذى يسميه عين هبدله
وهناك اصطلاح اختلف فيه المفسرون هو :

12 ـ هادبقوت ✪ ـــــــ ومعناها

الحرفى « اللواصق » ، ولم يعرف الباحثون أهو يريد بها « الصفة » أو « الاضافة » . وهذه الاخيرة استقرت عند متأخرى النحاة فى الاصطلاح الشائع :

13 ـ هاسميخوت ✪ ـــــــ اى التعبير

بالمضاف والمضاف اليه .

وكما لاحظنا من قبل من الغموض الذى يحيط بنشأة النحو العبرى فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادى ، نضيف أن هذا الغموض ليس متصورا على النظريات والمصطلحات والمؤلفات ، بل يتعدى ذلك الى أسماء العلماء أنفسهم ، وسنى حياتهم ، والاماكن التى عاشوا فيها .

فقد ذكرنا من نحاة القرائين « يهودا بن علان الطبرانى » ، واشرنا الى أنه ليس بين أيدينا شىء من كتاباته ، ونجد فى مراجع يهودية من العصور الوسطى أيضا نحويا يهوديا قرائيا أيضا اسمه « يهودا بن بلعام » وهو مجهول أيضا ، ولعل الاختلاف بين بلعام وعلان فى الاسمين ليس الا من تحريف الرواة والنساخ ، وان الاسمين لرجل واحد . وان كان ابن بلعام يلقب بالمقدسى ، وابن علان يلقب بالطبرانى ، ولكن ذلك أيضا أمر كثير الوقوع فى نسبة علماء اليهود الذين يسكنون فلسطين .

وربما كان النحوى « القرائى » أبو الفرج هارون بن الفرج المقدسى » أوضح فى معالمه من ابن علان ، أو ابن بلعام . فهو قد عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتغل بعلوم اللغة العبرية ، وتفسير الكتاب المقدس ، ورد ذكره عند كثير من علماء هذا العصر مثل سليمان بن يروحام وعلى بن سليمان واسرائيل المغربى وهذا الاخير يذكره باسم « الشيخ أبو الفرج هارون » . كما يذكره الاديب والعالم اليهودى الاندلسى الكبير موسى بن عزرا ، وينسب اليه بعض الآراء فى اللغة قائلا « فى تأليف أبو الفرج المقدسى » ،ويعزو اليه كتابا فى النحو العبرى اسمه « المشتمل » لم يصلنا أيضا ، وان كان اسمه يذكرنا بكتاب فى نفس الموضوع الفه بالعبرية العلامة داود قمحى ، وسماه « هامخلول ✪ ـــــــ » بعد أبى الفرج هذا ، ويكاد يكون الاسم العبرى ترجمة حرفية للاسم العربى « المشتمل » . كذلك اهتم بقواعد التلاوة « المسورة » واشتهر فيها له كتاب اسمه « الكافى » . والظاهر أن كتب أبى الفرج هارون المقدسى كانت رائجة حتى بين غير القرائين من اليهود ، فان شيخ نحاتهم ابا الوليد مروان بن جناح القرطبى المتوفى بسرقسطة فى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى يذكر أنه اطلع على كتاب فى النحو « لرجل مقدسى » كتم ابن جناح اسمه لانه قرائى .

ويوجد لابى الفرج هارون المقدسى هذا كتاب فى اللغة ، بقيت منه قطعة صغيرة مخطوطة فى المتحف البريطانى ، واسمه « شرح الالفاظ » . ويبدو أنه كان معجما لالفاظ اللغة العبرية مشروحة بالعربيـة .

كانت هذه الحركة اللغوية تأخذ مجراها فى الاوساط اليهودية المقيمة فى ظل الاسلام ، وتتخلق مستمدة عناصر تطورها وازدهارها من نحاة العرب ، يشهد بذلك ادباء كبار من اليهود أمثال الاندلسى يهودا الحريزي الذى كتب فى القرن الثانى عشر الميلادى مجموعة من المقامات باللغة العبرية لاول مرة اشار فيها ـ فى المقدمة ـ الى أن المثقفين اليهود فى عصره كانوا مفتونين بكل ما هو عربى ، مهتمين بتذوق الادب العربى لدرجة التقصير فى حق الادب العبرى ، ولذلك فقد انبرى لكتابة هذه المقامات التى سماها «سفرهاتحكمونى» اى « كتاب العبقرى » وقلد فيها مقامات الحريرى العربية ، وزاد على ذلك أن التزم فى سجعه

حرفين فى الثانية ، وهو ما يسميه علماء البديع العرب « لزوم ما لا يلزم » ، وربما كان فى ذلك يحاكى كاتبا عربيا أندلسيا للمقامات هو « السرقسطى » صاحب « المقامات اللزومية » ، وهو كتاب ضخم توجد منه نسختان خطيتان كاملتان فى مكتبة الاسكوريال بمدريد .

ويشير شيخ المترجمين اليهود من العربية الى العبرية فى العصور الوسطى يهودا بن شاؤل بن تبون الى ظاهرة التأثر بالعربية فى الدين والادب واللغة فى أيامه فى مقدمته لترجمة كتاب « الهداية فى فرائض القلوب » للمفكر اليهودى الفيلسوف بحياى بن فاقوده . أما الاديب والشاعر والعالم اليهودى الاندلسى ابراهام بن عزرا فانه يخصص كتابا بالعربية اسمه « المحاضرة والمذاكرة » لبيان نواحى الدقة والبلاغة فى التراث العبرى مصنفة على حسب أبواب المعانى والبيان والبديع فى مباحث البلاغة العربية .

وفى حركة تأليف المعاجم العبرية عند اليهود نجدهم يتتلمذون على القواعد التى أرساها سيبويه فى ارجاع أكثر الافعال والاسماء الى حروف أصلية ثلاثة ، ويأخذون كل المصطلح الخاص بالاعلال والابدال والحذف والادغام وغيرها . فمن أشهرهم اللغوى القرائى أبو سليمان داود بن ابراهيم الفاسى ، نزيل مصر فى القرن العاشر الميلادى ، وصاحب كتاب « جامع الالفاظ » وهو معجم أبجدى عبرى مشروح بالعربية نكتفى هنا بذكر سطور من مقدمته يتبين فيها بوضوح أثر مصطلح النحو العربى عليه ، فهو يقول :

« . . . . الالفاظ العبرانية تدور على أحرف هى أمهات الالفاظ وأسها . واعلم أن الامهات على أربع أقسام : أحدها أن تكون الكلمة دائرة على حرف واحد ، وكل لواحقها ترتفع والحرف ثابت » مثل : ⊗———— . والثانى

هو ماتدور الكلمة على حرفين ، ترتفع اللواحق وتثبت وهى مثل : ⊗———— .

والثالث هو ما يكون أصلها ثلاث حروف ، ولواحقها ترتفع وهى ثابتة ، مثل :
والرابع ، فهى الذى أسها أربع حروف ، وهى على ضربين : أحدهما أربع حروف أصلية ، مثل :
والثانى أربع مكررة ، مثل : ⊗————

⊗———— . ولا يزيد على اللغة العبرانية من هذه الاربع ، وعليها ينبنى كل منطقهم: من الامر والنهى ، والآنف والمستأنف ، والفاعل والمفعول ، والاسم والمصدر ، والتذكير والتأنيب، ما خلا (أسماء) الاشخاص التى غير متصرفة ، فانها تزيد على أربع أحرف ، مثل : ⊗———— .

3 — جهود سعديا الفيومى فى الربط بين اللغة العبرية ومناهج اللغويين العرب

يعتبر سعديا سعيد بن يوسف الفيومى أعظم شخصية ربطت بين النحو العربى حسب منهج سيبويه وبين التفكير اللغوى الناشىء عند اليهود . وقد ولد هذا الرجل فى الفيوم من أقاليم مصر فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، ثم تركها فى صباه الى فلسطين بعد أن كان قد تلقى قدرا صالحا من العلم بالعربية والعبرية والآرامية الترجوم والتلمود ، ودرس الشريعة الاسرائيلية . اتجه من مصر بعد ذلك الى فلسطين حيث أقام بها بضع سنين يتتلمذ على شيخ من شيوخ مفسرى اليهود وعلمائهم هو أبو كثير يحيى بن زكريا الطبرى .

وانتقل بعد ذلك الى بغداد ، فشارك المسلمين فى دراسة النحو واللغة ، وعلم الكلام . وهناك احس بقوة اليهود القرائين أتباع عنان بن داود ، فشجعه ذلك على مزيد من التبحر فى فلسفة العقائد الاسلامية ، وفى مناهج تفسير القرآن الكريم ، وخرج على الناس بكتاب فى العقائد اليهودية مكتوب بالعربية اسمه « كتاب الامانات والاعتقادات » . ويبدو أثر المتكلمين المعتزلة واضحا جدا فى هذا الكتاب ، ذلك أن المؤلف كان قد وجدهم فى بغداد يتولون قيادة الفكر الدينى عند المسلمين ، ويعملون بكفاءة فى افحام الزنادقة والملاحدة بالحجج العقلية المتأثرة بالفلسفة اليونانية. وكان كتابه هذا مثارا لمناقشات صاخبة جدا فى الوسط اليهودى فى العراق وايران ، اضطرته الى الانزواء ، والانسحاب من الحياة العامة ، ومن منصب حاخام بغداد الاكبر ، ورأس المشيبة (وهى المعهد العالى للدراسات الاسرائيلية) فى بلدة سورة القريبة من بغداد . وفى مدة اعتزاله هذه التى يجعلها مؤرخوه بين سنتى 928 — 937 ميلادية انصرف الى الدراسة وتفرغ للتأليف ، فكان أضخم عمل أنجزه فى ذلك

الوقت هو ترجمة عربية للكتاب المقدس العبرى ، راعى فى تحريرها اختيار المصطلحات الدينية التى تؤيد بدلالتها فى اللغة العربية مذهبه فى الاعتزال ، مع مطابقة ذلك فى معظم الاحيان لما جاء فى الترجمتين الآراميتين القديمتين للكتاب المقدس : ترجمة اونكلوس وترجمة يوناثان . كذلك فسر ترجمته العربية ـ بالعربية ايضا ـ تفسيرين ؟ احدهما مختصر والآخر مطول مفصل . وما تزال بين أيدينا أجزاء كبيرة من الترجمة ، وبعض قطع من التفسير المختصر نشرها يوسف درنبورج وابنه هارتويج فى باريس فى أواخر القرن الماضى .

ولعل أهم جهود سعديا على الاطلاق هى اقتباسه المنهج العربى الوارد على بغداد من مدرسة سيبويه بالبصرة فى تقنين البحث اللغوى والنحوى فى اللغة العبرانية بشكل واضح ومتسق مع النمط العربى .

فالى جانب معجم الفه ـ ورتبه بحسب الحروف الاخيرة للالفاظ ـ وسماه « أجرون » ، أى جامع اللغة ، والى جانب ما لاحظه من فائدة هذا الترتيب فى تسهيل العثور على « الفاظ القوافى » عند كتابة الشعر العبرى ، مما جعله يختم هذا الكتاب بدراسة بعنوان : « كتاب الشعر العبرانى » ، نجده يسبق العلماء اليهود جميعا فى تقييد قواعد النحو العبرى كاملة فى كتاب ضخم سماه « كتاب اللغة » . وواضح من كتابات علماء اليهود فى الجيل الذى جاء بعد سعديا أن المصطلح النحوى الذى أقره سيبويه قد دخل معظمه فى هذا الكتاب، وعنه العربى اخذ نحاة العبريين بعد ذلك ، بحيث ظل النحو العبرى حتى الآن ، وحتى عند من لم يعرفوا العربية من نحاة اليهود ، مطبوعا بطابع سيبويه .

وقد ذكرنا من معاصرى سعديا فى مصر وشمال افريقية اللغوى القرائى أبو داود سليمان بن ابراهيم الفاسى ، صاحب كتاب جامع الالفاظ .

فممن عاصروا سعديا فى المغرب العربى ، وجروا على نهج اللغويين العرب :

دونش بن تميم ، المولود فى القيروان فى أواخر القرن التاسع أو أوائل العاشر الميلادى ، وكانت أسرته من المهاجرين من بغداد . وقد اشتهر عنه تاليفه معجما للغة العبرية مشروحا بالعربية ، وقد عنى فيه ـ على طريقة سعديا الفيومى ـ بالمقارنة بلغات أخرى كالآرامية والفارسية وغيرهما . ذكر ذلك نوباور فى دراسته عن بدايات النحو واللغة عند اليهود .

ومن هذه المدرسة ايضا ، ومن معاصرى سعديا الفيومى ، النحوى المغربى يهودا بن قريش. وهو من بلدة تاهورت فى المغرب . الف معجما كبيرا للعبرية ، مرتبا على حروف المعجم ، ومبنيا على تجريد الالفاظ من الزوائد والعودة بها الى اصولها الاولى ، التى كان يرى أن حرفين منها هما عصب المادة كلها ، حتى أن أنصار القول بما يسمى « الثنائية » فى تصريف الالفاظ العربية ، فى مقابل « الثلاثية » التى تبدو واضحة فى أعمال سيبويه وتلاميذه ، يشيدون بجهود هذا الرجل فى اقامة نظرية الثنائية هذه . ولكن شهرته فى الحقيقة ترجع الى رسالة كتبها بالعربية الى يهود مدينة فاس ، ونشرها فى باريس سنة 1857 العالمان « بارجيس » و « جولدبرج » مع مقدمتين أحداهما عن حياة ابن قريش والاخرى عن اعماله العلمية . وهو فى هذه الرسالة ينادى بضرورة تعلم اللغويين اليهود للغة العربية والآرامية حتى يستطيعوا فهم كتابهم وشريعتهم ، بل ينادى بتعلم اللغات غير السامية التى يعيش اليهود فى ظلها كالفارسية والبربرية ، ويرى أن نحاة العرب يجب أن يكونوا بمناهجهم الرواد والقدوة فى تاليف قواعد اللغة العبرية .

ووراء هذا الجيل من العلماء ، تطالعنا فى النحو العبرى ـ بعد انتقال النشاط الفكرى اليهودى من الشرق الى المغرب والاندلس كما رأينا ـ مجموعة من اللغويين والنحاة يعتبرون التلاميذ الامناء ، والمقلدين الاوفياء للمدرسة البصرية العربية ، بلا شك بعد تحوير تعرضت له فى رحلتها الطويلة من البصرة الى اسبانيا ، ومن لغة القرآن الى لغة التوراة .

فمن هذه الجماعة اثنان متعاصران ، مختلفان على بعض تفاصيل فى تطبيق المنهج العربى، بحيث اصبح اختلافهما مشهورا بين اليهود كشهرة اختلاف سيبويه والكسائى ؟ والبصرة والكوفة فى المحيط العربى . هذان العالمان هما :

مناحم بن سروق ، من مدينة طرطوشة (910 ـ 970) .

ذاع صيت هذا اللغوى اليهودى حتى وصل الى مسامع حسداى بن اسحق بن شبروط ، الاديب الاسرائيلى الكبير الذى كان وزيرا لعبد الرحمن الثالث الاموى فى قرطبة ، فاستدعاه والحقه بقصره ، وجعله جليسا له ، ومعلما لاولاده ، وشاعرا لليهود فى بلده . وهناك جمع مناحم الفاظ اللغة العبرية المستعملة فى الكتاب المقدس ورتبها فى معجم ابجدى — يقولون انه يجرى على نظرية الثنائية مثل ابن قريش — وسماه بالاسم العبرى « محبيرت » أى « الدفتر » . وكان شرحه لالفاظ التوراة بالعبرية لا بالعربية ، مما جعل المترجمين من اليهود الحاسدين للمسلمين على حضارتهم الشامخة ، يتحمسون له جدا ، لان عمله كان أول عمل علمى يظهر من أوله الى آخره مكتوبا بلغتهم القومية ، وغير معتمد على لغة العرب . ويظهر مما بقى لنا من كتاباته انه كان يجهل اللغة العربية ، أو انه على الاقل كان يعرف منها لهجة العوام فى الاندلس والمغرب معرفة ضعيفة ، دون أن تكون له ثقافة فى داخل الفكر العربى الرسمى العالى .

اما منافسه دونش بن لبرط (920 — 990) فانه كان سليلا لبعض الموالى اليهود لدى المسلمين ، ومن هنا جاء لفظ « لبرط » وهو تحريف من العامية الاسبانية فى وقته « لبرادو » أى « المعتق » أو « المحرر » . وهو من مواليد مدينة فاس على التحقيق ، وعلى هذا استند المؤرخون الذين ردوا على من يعتبرونه هو ودونش بن تميم شخصية واحدة .

كان دونش بن لبرط ، بعكس مناحم بن سروق ، متبحرا فى علوم العربية ، متابعا متابعة دقيقة لآثار سيبويه واستاذه الخليل بن احمد ، ومن هذا الاخير أخذ علم العروض العربى فادخله فى الادب العبرى ، وكان بهذا العمل مفجرا لثورة ادبية هائلة ظهرت فى حقبة دامت قرونا طويلة فى العصور الوسطى ، هى التى يسميها مؤرخو الادب العبرى « عصر الشعراء » .

فبفضله عرفنا شعرا عبريا موزونا مقفى ، على طريقة التمصيد العربى ، أو الرباعيات الفارسية ، أو الموشحات الاندلسية ، باقلام كتاب موهوبين من أمثال : ابن جبيرول ، يهودا اللاوى ، ابراهيم بن عزرا ، موسى بن عزرا ، يهودا الحريزى . . . الى آخره .

وتحتدم المنافسة بين مناحم ودونش عندما يختلف الوزير حسداى بن شبروط مع مناحم ، فيبعده عن قصره ، ويحل محله دونش بن لبرط . ويبدأ صاحبنا هذا بنقد قاموس مناحم المسمى « محبيرت » فى رسالة بعنوان « هصاجوت » بمعنى « استدراكات » يبدو فيها شديد الكراهية لمناحم لدرجة انه يصنف فيها شعرا بقوله :

« لقد حطم اللغة المقدسة
ووضع فيها الاخطاء مكدسة
ولو فهم لاغلق فمه
باقفال محكمة »

ولم تمر هذه المعركة مر الكرام ، بل تحزب فيها لمناحم بن سروق جماعة من العلماء اليهود ، فيهم كثيرون ممن يعرفون العربية حق المعرفة مثل اسحق بن جقطيلة ، افرايم بن قفرون ، ابو زكريا يحيى (يهودا) بن داود حيوج . وقد ظهرت عن هذه الجماعة من العلماء رسالة فى الرد على دونش والانتصار لمناحم ، جاء فى أولها شعرا :

« ذلك هو المدعو ابن لبرط
يتعب نفسه فيغلط
ويظن نفسه قد حلل
كل المسائل وعلل
وهو قد اقتلع اللغة الشريفة
باخضاعها لموازين غير معروفة »

واستمر الهجاء — شعرا ونثرا — بين المدرستين بما يطول ذكره .

ويخطو النحو العبرى خطوة حاسمة نحو مقاييس سيبويه على يد لغوى منهجى الفكر وهو :

أبو زكريا يحيى (يهودا) بن داود حيوج ، من مواليد فاس بالمغرب فى هذا القرن العاشر الميلادى . والظاهر أن اسم حيوج يتضمن فى آخره نسبة عامية اسبانية بهذه الواو والجيم ، التى

تجدها فى أسماء مثل « البدروجى » الملكى البرتغالى فى العصور الوسطى . وعلى ذلك فانه لا بد أن ينتمى الى جد اسمه « حيا » ، لعله هو الذى حمل اسمه بين العرب والمسلمين فاصبح يدعى يحيى .

أخذ حيوج نظرية « القياس » من سيبويه ، وكتب على ضوئها :

1 ـ كتاب التنقيط ، وفيه يبين الاحكام النحوية التى يخضع لها توزيع الحركات والسكون على الالفاظ العبرية ، مع مباحث فى الاشتقاق والادغام والمجرد والمزيد والاضافة وحروف الحلق، واشتقاق معظم الفاظ اللغة العبرية ـ كالعربية ـ من أصول ثلاثية .

وكان المترمتون من اليهود ما يزال أكثرهم يجهل أحكام الاعلال والابدال والتشديد والتضعيف والادغام فى اللغة العربية ، وما يقابل ذلك فى اللغة العبرية ، فراحوا يخطئون حيوج ، ويعترضون على نظريته فى كون الافعال لا يمكن أن تقل أصولها عن ثلاثة أحرف ، ويسوقون دليلا على ذلك من العبرية أفعالا مضعفة مثل « بز » و « دق » ، وأفعالا جوفاء مثل صيغة « تم » و « سم » . ولايضاح هذه النقطة ألف حيوج كتابين آخرين هما :

2 ـ كتاب الافعال ذوات المثلين .

3 ـ كتاب الافعال ذوات حروف اللين .

وقد وصلت هذه الكتب الثلاثة الينا ، ونشرها فى القرن الماضى المستشرق « دوكس » سنة 1844 والمستشرق « نيت » سنة 1870 .

ومن خلال العمل النحوى لحيوج تأخذ أركان القياس البصرى مكانها بصورة نهائية فى اللغة العبرية .

وهكذا نجد الجهود التى بدأت بمدرسة ابن قريش وقبله أبو سعيد هارون بن موسى بن آشر الذى سبقت الاشارة اليه تستمر وتنتصر على يد حيوج . كان أولئك العلماء ـ حتى أمام الكثير من خصوصيات اللغة العبرية ـ يحاولون تفسيرها وتنسيقها على ضوء القواعد العربية . فابن آشر مثلا عندما اهتم بالقراءات الشرعية للتوراة وجد حركات الضبط والتشكيل سبعة عند اليهود هى :

1 ـ القامص . ⊙ ـــــ وهى الفتحة الطويلة الممدوده .

2 ـ الباتح : ⊙ ـــــ وهى فتحة قصيرة كالفتحة العربية .

3 ـ الصيرة : ⊙ ـــــ وهى امالة نحو الكسر طويلة ممدودة .

4 ـ السجول : ⊙ ـــــ وهى امالة مثل سابقتها ولكنها قصيرة .

5 ـ الحولم : ⊙ ـــــ وهو ضم ممال نحو الفتح وليس ضما صريحا طويلا .

6 ـ الحيرق : ⊙ ـــــ وهو كسر صريح مثل الكسرة العربية .

7 ـ القبوص : ⊙ ـــــ وهو ضم صريح مثل العربية .

ويضيفون الفتحة الصريحة الممدودة بالواو: الشورق ⊙ ـــــ الى هذه السبعة .

وقد أوضح بن آشر ، وتبعه فى ذلك من جاء بعده من نحاة اليهود أن أصول الحركات هى الفتح والضم والكسر الصريح المعروف فى العربية ، وأن ما زاد على ذلك ، بالامالة نحو الكسر أو الضم ، أو بالمد والتطويل ، ليس الا تنويعا يقتضيه التصريف ، وبعض أحكام الاعلال والابدال . وبهذا نجدنا ونحن فى الفكر اللغوى العبرى الناشىء نقف بقدم ثابتة فى صميم دراسات الخليل بن احمد وسيبويه .

4 ـ ابن جناح والخطوة النهائية فى تطبيق نحو سيبويه على اللغة العبرية

ابو الوليد مروان بن جناح القرطبى الاندلسى اليهودى ، شيخ نحاة اليهود على الاطلاق ، وامامهم الاعظم بكتابه « اللمع » فى النحو العبرى الذى يعتبر عندهم ككتاب سيبويه عند العرب .

ولد فى قرطبة حوالى سنة 990 ميلادية ، ويبدو من ثقافته ، واسلوبه الجيد فى استعمال لغة العرب ، والاستشهاد بكثير من اشعارها وأمثالها وأقوالها المأثورة ، أنه منذ طفولته كان يدرس العربية مع العبرية . والعربية فى الاندلس

كانت من حيث النحو واللغة تقوم على مذهب أهل البصرة ، وعلى ذكر سيبويه ، وكتابه على الخصوص. بحيث نستطيع أن نقول ان اثر الكوفة فى الاندلس لا يكاد يكون محسوسا ، اللهم الا عندما يكتب نحاة الاندلس الكبار كتبا موسعة فى النحو ، فيعنون باعطاء بعض الامتداد لمسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين ، نجد ذلك فى كتب أبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، وفى استدراكاته على سيبويه ؛ كما نجده فى كتاب الافعال لابن القوطية وشروحه ، وفى أعمال الاعلم الشنتمرى ، أحسن من شرحوا شواهد كتب سيبويه ، كما يظهر عند كبار النحاة المرسيين الاندلسيين كابن خروف وابن عصفور وابن مالك .

كان سيبويه فى الاندلس قد أصبح الامام الذى ليس قبله ولا بعده ، والمرجع الذى ينهل منه كل متخصص فى النحو العربى . حتى أن أبا بكر محمد بن الحسن الزبيدى النحوى المشار اليه آنفا وإلى كتابه فى الاستدراك على سيبويه يقول : « فانى رايت علماء النحو فى زماننا هذا وما قاربه ، قد أكثروا التاليف فيه ، وأطالوا القول على معانيه ، فاملوا الناظرين ، واتعبوا الطالبين ، بتكرار معان قد بينت ، وركوب أساليب قد نهجت . فلم يخل اكثرهم بغير اعادة ما تقدم اليه ، والتكثير فيما سبق الى القول عليه . وقد كان ينبغى لمن هم بذلك منهم أن يتصفح كتاب عمرو بن عثمان — المعروف بسيبويه — فينظر الى مبادى كتابه ، وعنوانات أبوابه ، ويرى لطائف معانيه ، ودقائق حجاجه . الى الايجاز فى قوله ، والايعاب لمراده ، فيزجره ذلك — ان كان ذا حجى — عن تكلف ما لا حاجة اليه ، ويمنعه الاعتناء بما لا معول عليه » ، (من مقدمة الاستدراك على سيبويه) .

فاذا كان العربى المسلم فى الاندلس قد قر قراره على منهج سيبويه فى دراسة أبنية اللغة العربية ونحوها ، فان اليهود — وهم قد تلمسوا لغتهم نحوا لدى العرب كما رأينا — لا يمكن ان يكون لديهم باب آخر غير سيبويه ينفذون منه الى أسرار لغتهم .

وثمت سبب آخر لالتئام منهج سيبويه مع مطالب اللغة العبرية فى ذاك الوقت . ذلك أن منهج الكوفيين — خصوم البصرة العلميين ، وخصوم سيبويه شخصيا — كان مذهبا يعطى للسماع فى اللغة أهمية لا يأخذها عندهم القياس . واللغة العبرية كانت قد ماتت قبل تلك العصور بأكثر من ألف سنة، ولم يكن السماع والحالة هذه ممكنا عندهم ، وكان لا بد من التعويل على القياس ، لا فى اللغة فحسب بل فى الدين أيضا . فلما فتح اليهود عيونهم على كتاب سيبويه منذ عهد سعديا الفيومى وجدوا فى منهجه ضالتهم المنشودة . وكان من يحسن منهم العربية يتفوق فى العبرية نفسها على أقرانه من العلماء لاعتماده على مقاييس متينة من لغة العرب وقواعدها . فمثلا نجد الاندلسى اليهودى موسى بن عزرا ، فى كتابه « المحاضرة والمذاكرة » الذى ما يزال مخطوطا فى مكتبة اكسفورد بانجلترا — وهو يتكلم عن علماء مدينة « اليسنة » الاندلسية القريبة من قرطبة فى عهد مروان بن جناح فيقول : « . . . وربى اسحق ابن جقطيلة ، وربى اسحق بن شاؤل الاليسانيان (فى المخطوطة تحريف : الاسانيون) فرسا رهان ، الا أن ابن جقطيله كان منهما السابق ، لوفور حظه من العربية . . . » . وفى موضوع آخر يذكر المستعربين من أولئك الادباء اليهود فيقول : « . . . وباليسنة فى ذلك الوقت أبو الوليد (بن) حسداى ، وأبو سليمان ابن راشلة ، وأبو ابراهيم ابن برون ، ودونهم ابن أبى يقوا ، الملقب بالمتنبى . . . » .

فى هذا الوسط ، الذى كانت فيه اللغة العربية هى أعلى صيحات الفكر فى ذلك العصر ، نشأ مروان بن جناح مترددا بين الحاخامين المتبحرين فى الكلية اليهودية فى اليسنة ، وبين الادباء والشعراء والنحاة والقضاة والفقهاء المسلمين فى بلده قرطبة القريبة من اليسنة . وجرى على سنة الكثيرين من يهود بيئته حتى فى اسمه : فاسمه العبرى « يونا » وهو الذى يقابل فى العربية « يونس » . وكان اليهود اذا دعا بعضهم بعضا يلقبه بالسيد تأدبا ؛ وهى عندهم كلمه « مار » . فكان صاحبنا يدعى فى الاوساط اليهودية «ماريونا». فلما اراد ان يتشبه بالعرب حول « مار يونا » الى اقرب نطق منها وهو « مروان » . ونظرا لان معنى كلمة « يونا » فى اللغة العبرية هو الحمامة أو اليمامة ، فانه — لكى يشير الى معنى اسمه العبرى — زاد عليه « ابن جناح » ، وعلى ذلك فاسم أبيه علمه عند الله ، لان « جناح » وردت رمزا لاسمه العبرى لا اسما لابيه . ولان المروانية من الخلفاء الامويين كانوا يكثرون من تسمية

ابنائهم « الوليد » ، مثل الوليد بن عبد الملك بن مروان ، والوليد بن يزيد ، فانه اتخذ كنيته العربية « أبا الوليد » ، واصبح اسمه المعرب كما قلنا هو « ابو الوليد مروان بن جناح » .

درس ابن جناح الى جانب التوراة والتلمود جملة طيبة من القرآن والحديث ، واتقن النحو العربى على مذهب سيبويه ، لدرجة انه ذكره صراحة وباسمه فى كتابه « اللمع » فى النحو العبرى وهو يتحدث عن الايجاز والحذف فى اللغة العبرية فيقول : (اللمع بتحقيق يوسف درنبورج — باريس سنة 1886 — ص 261) : « . . . ولا تنكرن حذفهم بعض الكلمة ، مثل قولهم اى نقى ✪ ——— مكان ايش ✪ ——— ، وغيره مما ذكرته . فان الكلمة اذا جرت على السنتهم كثيرا يخففونها . وقد يفعل غير العبرانيين ايضا مثل هذا ، كما قالت العرب (المنا) مكان (المنايا) ومكان (المنازل) فحذفت . وقد يحذفون اكثر من هذا ، حتى انهم لقد يستجزئون من الكلمة بذكر أول شبهة منها ، حكى ذلك عنهم سيبويهم ، وانشد لبعضهم :

بالخير خيرات وان شرا فا
ولا اريد الشر الا ان تا

أراد : وان شرا فشرا ، فاستجزوا بالفاء فقط . وأراد بقوله الا ان تا : الا ان تريد ، فاستجزى بالتاء فقط » .

فهذا برهان ملموس على معرفة مروان بن جناح للنحو العربى مباشرة من كتاب سيبويه وشواهده واستخدام ذلك فى نحوه العبرى .

ولم يكن مروان بن جناح مهتما بالدراسات الادبية والدينية فقط ، بل كان متخصصا فى الطب والصيدلة ، ومارس الطب فترة من حياته ، والف كتابا فى العقاقير اسمه « كتاب المفردات » .

وكان مروان بن جناح فى قرطبة معاصرا للامام احمد بن حزم ، وكانت قرطبة فى هذا الوقت زاخرة بالشعراء والعلماء والادباء ، وبمشجعيهم من الامراء وأثرياء التجار ، وفيها وجد مروان مكانا مرموقا يبدأ فيه نشاطه اللغوى والنحوى .

وكانت المعركة محتدمة بين انصار دونش بن لبرط المعجبين بالثقافة العربية ، وانصار منافسه المتعصبين ضدها ، وكان مروان من المعسكر الاول .

فاخذ على عاتقه ان يدافع عن نظرية استاذه ابى زكريا يحيى بن داود حيوج فى تقسيم الافعال الى مجرد ومزيد ، وكون المجرد لا يمكن ان يقل عن ثلاثة احرف . فالف كتابا يضيف فيه امثلة كثيرة ومشكلة من الافعال التى استعملت فى الكتاب المقدس ، ويتخلل ذلك آراء ونظريات فى النحو والصرف تنم عن منتهى الوفاء لمنهج سيبويه . ورد فى المستلحق (ص 12 — 13 ، باريس) قوله فى الحديث عن علاقة المصادر بالافعال : « واما المصدر فهو عندى بمنزلة الجنس الاعلى ، وهو اقدم من الفعل تقدمة طبيعية ، اعنى الفعل يرتفع بارتفاع المصدر ، وليس يرتفع المصدر بارتفاع الفعل ، والفعل ماخوذ منه وصادر عنه ، اعنى : المصدر اسم الفعل » . وهذا هو نفسه رأى سيبويه ، ورأى البصريين جميعا ، كما نص عليه ابن الانبارى فى المسألة الثامنة والعشرين من كتابه « الانصاف ، فى مسائل الخلاف ، بين البصريين والكوفيين » .

والظاهر ان معسكر المتزمتين من اليهود كان ينكر على مروان تأثره بالنحو العربى ، فراح اعداؤه يكيدون له ويكتبون النشرات السرية بعنوان : « رسائل الرفاق » فى محاولة فضحه وتجريحه ، ولكنه كان فارسا لا يشق له غبار فى رد السباب بالسباب والاستشهاد بالشعر العربى فى السخرية من أعدائه ، فهو يصفهم بأنهم الجهال ، والمساكين ، والاغبياء ، والنذام ، والسخفاء ، والنماذرون ، والهامرون ، والرعاع ، وناضحو انفسهم ، وينعتهم بقول الشاعر :

يتعاطى كل شىء
وهو لا يحسن شيئا
فهو لا يزداد علما
انما يزداد غيا

ويختم ابن جناح هذه الرسالة التى كتبها الى صديق له ، وسماها رسالة التنبيه ، وضمنها ردا علميا بصريا سيبويهيا على اعدائه بقوله : « هذا ياسيدى ما نمى لى من اعتراضهم على ، ما رأيت اعلامك به ، وتوقيفك عليه لتعجب من جهلهم ، وقلة فطنتهم ، وايضا لتكون هذه الرسالة لمن عساه لم تتأد اليه من الاحداث اول وهلة

فصول صدر كتاب « المستلحق » تنبيها على جهل هؤلاء الرعاع وانتقاذا لهم من غمرة غفلتهم . واعلمك ان هؤلاء السخفاء ، لقبوا كتابهم بكتاب الاستيفاء ، وعزوه الى بعض الاغمار ، خوفا منهم ــ أن نسبوه الى انفسهم ــ أن يتسع الرد عليهم فيه ، وتكثر السخرية منهم عليه ؛ لعلمهم ايضا انى لا محالة سابقهم :

سبق الجواد اذا استولى على الامد

فلما بلغهم علم الناس بأنهم الهاذرون الهامرون لا غيرهم ، وتضاحك كلّ من فيه حشاشة على ما بدا من جهلهم ، ستروه كما تستر الهرة جعرها ، وجحدوه ، غير أن الناس لقبوا لهم ذلك الكتاب بكتاب الاستخفاء ، فهذا مبلغ علم عالمنا ، ومنتهى فهم اديبنا ✪ ـــــ .

اعاذنا الله واياك من الاراء المضللة ، والاهوية المردية ، بمنه ورحمته » ، (رسالة التنبيه ، ص 266 ــ 267 ، باريس 1880) .

أما الشاهد العبرى الذى استعمله فهو من سفر الامثال 30 : 12 يقول : انه جيل يرى نفسه نظيفا بينما هو لم يغتسل من نجاساته .

ومن بداية نشاط ابن جناح فى النحو نلاحظ وفاءه للمدرسة البصرية العربية واضحا فى نقطتين هامتين :

1 ــ القول بالاصول الثلاثية فى الاشتقاق .

2 ــ القول بالقياس على طريقة البصريين ، نشعر بذلك عندما يأتى فى ثنايا حديثه قوله « لم يفهموا ما اجتلبته من المقدمات المنطقية ، والنتائج العقلية ، والدلائل الحسية ، برهانا على أن الاصل ... الخ » (نفس المرجع : ص 257) . بل انه فى مكان آخر يقول بصراحة : « انا معشر أهل القياس ... » (نفس المرجع : ص 366) .

وكان مروان بنجناح بعد الحوادث التى جرت على قرطبة بهجوم البربر عليها واحتلالهم لها عام 1012 ميلادية ، اى فى السنوات الاولى من القرن الخامس الهجرى ، قد اضطر الى الهرب والالتجاء الى مدينة سرقسطة فى الشمال حيث اشتغل بتعليم اللغة العبرية ، وتوج عمله العظيم بموسوعة لغوية قيمة من جزأين سماها « كتاب التنقيح » .

قسم مروان كتابه هذا قسمين مستقلين ، الثانى منهما سماه « كتاب الاصول » وهو معجم عبرى ابجدى مبنى على نظريات سيبويه المجرد والمزيد ، حسب الترتيب المعروف فى المعاجم العربية التى ترتب الالفاظ بحسب مواد اشتقاقها ، وعلى الحرف الاول من المادة .

اما الكتاب الاول ، أو الجزء الاول من التنقيح ــ وهو اهم الجزأين وارسخهما قدما فى نحو سيبويه فهو « كتاب اللمع فى النحو » الذى اشرنا اليه اكثر من مرة .

وخلاصة القول ان مروان بن جناح كان رجلا منهجيا فى عمله بحيث قسم هذا العمل الى قسمين :

القسم الاول : وهو النصوص التى يشتغل عليها ، ويمارس فيها بحثه ، وهى نصوص التوراة بتحقيقات علماء المسورة وائمة القراءة والتنقيط . يضاف الى ذلك نصوص من المشنا والتلمود والترجوم يعمد اليها المقارنة . ثم يأخذ آراء السابقين من علماء اليهود السابقين عليه . يقول فى مقدمة كتاب اللمع : « ... فلما كانت منزلة علم اللسان المنزلة التى وصفناها ، وكانت درجته الدرجة التى ذكرناها ، اعتقدنا أن نؤلف فى ذلك كتابا نجمع فيه ابوابا ، تشتمل على اكثر علم اللغة ، وتحيط بجل استعمالاتها ومجازاتها وانحائها ، ونودعه ايضا اكثر اصولها الموجودة عندنا فى المقراء ، ونشرح غريبها ، ولا ندع فى المقراء شيئا يستفاد من المصادر وتصاريف الافعال الا ونودعه كتابنا هذا ، ونبين ذلك ونبسطه بقدر وسعنا ومبلغ طاقتنا . وأنا أزعم أن استشهد على شرح بعض الاصول بما أمكننى من الموجود فى المقراء ، وما لم أجد عليه شاهدا من المقراء استشهدت عليه بما حضرنى من المشنا والتلمود واللغة السريانية ، اذ جميع ذلك من استعمالات العبرانيين .

مقتفيا فى ذلك اثر رأس المثيبة الفيومى ــ رحمه الله ــ فى استشهاده على السبعين لفظة المفردة فى المقراء من المشنا والتلمود ؛ وأثر غيره من الجاونيم ايضا ، كرب شريرا ، ورب هاى ــ رضى الله عنهما ــ وأثر غيرهما ايضا وما لم أجد عليه شاهدا مما ذكرته ووجدت الشاهد عليه من اللسان العربى ، لم انكل من الاستشهاد بواضحه ، ولم انحرج عن الاستدلال بلائحه ، كما يتحرج عن ذلك من ضعف علمه ، وقل تمييزه ، من

أهل زماننا . لاسيما من استشعر منهم التقشف ، وارتدى بالتدين ، مع قلة التحصيل لحقائق الامور . وقد رأيت رأس المثيبة رب سعديا ــ نضر الله وجهه ــ يتوكأ على مثل ذلك في كثير من تراجمه ، أعنى أنه يترجم اللفظة الغريبة بما يجانسها من اللغة العربية . وقد رأيت الاوائل ــ رضي الله عنهم ــ وهم القدوة في كل شيء ، يستشهدون على شرح غريب لغتنا بما جانسه من غيره من اللغات » . وهكذا يرسي مروان بن جناح ، بعد سعديا الفيومي ، الاسس الاولى لاحدث علوم اللغة التي يزعم الغرب انه مخترعها ، وهو علم اللغة المقارن .

القسم الثاني : وهو المنهج المأخوذ عن العرب ، وهو عنده يبدو في مظهرين :

1 ــ محتوى الكتاب ، وهو فيه يتبع سيبويه في تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف . وتقسيم الاسم الى جامد ومشتق . وتقسيم الفعل الى ماض ومضارع ، مع الاشارة الى أنه قد يفيد الخبر أو الامر أو التأويل بمصدر . وهو ايضا يأخذ الاصول الثلاثة ميزانا للاشتقاق ويستعمل كثيرا من مصطلح سيبويه ، وعبارته ، حتى النادر منها : مثل الفعل « اتلاب » بمعنى استقام واطرد . فقد استعمله سيبويه مرة واحدة في الجزء الثاني من كتابه ص 297 من الطبعة الاوربية ، ومرتين في اسم الفاعل « متلئب » في نفس الجزء الثاني ص 443 و 446 . ويستعمله مروان بن جناح مرتين ، مرة بصيغة الفعل مثل سيبويه « اللمع ص 86 » . ومرة في صيغة اسم الفاعل « اللمع ص 83 » . ونجده يعتقد تبعا لسيبويه في نظرية العامل لدرجة انه يقول مرة في كتاب اللمع ص 328 : « وهذا مما اجتمع فيه عاملان » ويكرر تعبيره ذاك مرارا ، منها مثلا ص 279 ، 355 . . الخ . كما اننا ذكرنا من قبل انه يؤمن بالقياس ، وقد قال في كتاب المستلحق : ص 37 « حمل الاقل كحمل الاكثر اقيس في اللغة » . وفي نفس الكتاب ص 101 : « وأما انا فانما مذهبي أن أضيف حرفا مجهولا الى أصل معروف ، دون أن يمنع من ذلك القياس والسبار المستعمل في تصريف اللغة »

وهو لا يغفل في مناقشة الشواهد والامثلة المعاني البلاغية ، فيرد عنده منها قدر من المصطلحات كالتقديم والتأخير والحذف والتشبيه والاستعارة والمجاز والاتساع والتأكيد والتعظيم والالتفات ، ويقول عن هذا الاخير : وهو ، أعنى الالتفات ، قسم من أقسام البلاغة .

ويقول في موضع آخر من كتاب اللمع : . . . وهذا القسم من أقسام البلاغة يسمى الاشتقاق والتجنيس ، وهو عند الخطباء والبلغاء مستحسن جدا .

ويتحدث عن الجمل الاعتراضية في الفصل الثالث والثلاثين من كتاب اللمع حديثا بين البلاغة والنحو .

2 ــ التقسيم الظاهري للكتاب وأسلوبه في مناقشة الشواهد ، والاهتمام بما يسميه « العوامل » يثير عندنا سؤالا هاما ، فاللغة العبرية لا اعراب فيها ، والمتأخرون من نحاة العرب يجعلون مدلول العوامل عندهم محصورا في الاثر الاعرابي ، فهل كان الامر كذلك عند سيبويه ؟ أم ان مفهوم العامل عنده انه عنصر له وظيفة في نظم الكلام ومعنى الجملة يأتي الاعراب تبعا له في العربية لانها معربة ، ولا يأتي في العبرية الموقوفة ، دون أن يمنع ذلك شيخ نحاتهم من استعمال كلمة العوامل في بحثه النحوي . أما شواهده فانها كما قلنا كانت في الاغلب الاعم من الكتاب المقدس ، وقد بلغ عددها في كتاب اللمع وحده أكثر من ثمانية آلاف آية وهو قدر يزيد على ثلث الكتاب المقدس ، مما يجعل من عمل هذا النحوي عملا أساسيا في التفسير عند اليهود أيضا .

كل هذا التألق في النظرية النحوية في الوسط المثقف اليهودي ما كان ليتأتى لهم لولا سماحة الاسلام التي أتاحت لليهود أن يتعلموا العربية فيتقنوها ، وأن يتخصص بعضهم في سيبويه فيطبقه على لغة بني اسرائيل بهذا الاحكام الذي قام به مروان بن جناح .

وقد ترجم يهودا بن شاؤل بن تبون كتاب « اللمع » الى العبرية بعد وفاة المؤلف بقرن من الزمان باسم « سفر هارقمه ـــــ ✪ ـــــ » ظل مرجعا لقواعد اللغة العبرية ونحوها ومنه استمدت المراجع الحديثة كما قلنا .

كل ذلك يضيف بلا شك أشعة جديدة تتألق من عمل شيخ نحاة العربية ، صاحب « الكتاب » الذي يعتبر دستور كلام العرب ، سيبويه رحمه الله . . .

المراجع والمصادر

ابن الانبارى ، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد :

نزهة الالبا فى طبقات الادبا ، القاهرة ـ 1945.

ابن جنى أبو الفتح عثمان :

كتاب اللمع فى النحو ، مخطوط بمكتبه بلدية الاسكندرية ـ رقم 1992 ـ د.

الاعلم الشنتمرى ، سليمان بن عيسى :

شرح شواهد كتاب سيبويه (على هامش طبعة القاهرة سنة 1316 هـ .

البير حبيب مطلق :

الحركة اللغوية فى الاندلس ، منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر ملوك الطوائف :

المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت، 1967.

ابن مضاء القرطبى ، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن اللخمى :

كتاب الرد على النحاة ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، القاهرة ـ 1947 .

الفتح بن خاقان :

صفة جزيرة الاندلس (فى الروض المعطار) ـ القاهرة 1937

المقرى ، الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى المتوفى 1041 هـ . :

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة 1947 ، نشرة معادة فى دار الكتاب البنانى ـ بيروت .

سيبويه : الكتاب :

الطبعة الاوروبية ، بتحقيق هارتويج درنبورج ، الجزء الاول : باريس 1885 ، والثانى 1889.

الطبعة المصرية ، مع شرح الشواهد للاعلم الشنتمرى ، ومقتطفات من شرح السيرافى : المطبعة الاميرية بالقاهرة 1316 هـ.

سعديا ، سعيد بن يوسف الفيومى :

ترجمة التوراة بالعربية ، وأسفار اخرى من العهد القديم :

تحقيق يوسف درنبورج وابنه هارتويج . فى خمس مجلدات ، باريس من سنة 1893 الى سنة 1899 .